

ظاهرة الفناء في العمارة العربية التقليدية

معماري الشهر..... حسن فتحي

لونارد - القاهرة:

تنامي مع منتصف القرن الأقل تيار بين اوساط المهتمين بالعمارة العربية الإسلامية ما بين معماريين وكتاب ومفكرين وفلاسفة ممن لهم اهتمام بالعمارة العربية الإسلامية، وممن يرى أن بعضاً من معماريي العالم العربي قد انساق وراء شعارات تنادي بالنظام العالمي الجديد للعمارة على أثر الحربين العالميتين وظهور انماط من العمارة لم يعدها العالم العربي من قبل. وأيا كانت بواعت انطلاقاً هذا النظام العالمي الجديد للعمارة - إلا أن تلك الأسباب لانبعثتها لم تجد الشرعية أو القبول لدى انصار هذا التيار المتنامي الذي رأى في النظام المعماري الجديد الذي لا يعترف بمكان أو زمان خطراً يهدد أركان العمارة التقليدية ويقوض دعائم (العمارة المحلية). وينطق انصار هذا التيار عن عدائهم لهذا النظام الدخيل من ادعائهم بأن العمارة الاقليمية تعبر عن البيئة التي نشأت منها، فيما يلغي النظام الجديد هوية المكان والزمان وينادي بعولمة العمارة.

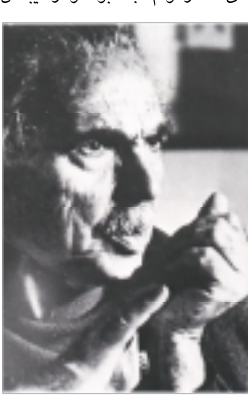
ولعل بداية هذه الصيحة يمكن تسجلها ونسبها الى معماري رائد هو شيخ المعماريين العرب - كما يطلق عليه البعض - بعد بحق رائد العمارة العربية المعاصرة - المعمار حسن فتحي. عرف حسن فتحي بشغفه بالعمارة البسيطة التي تعبر عن البيئة التي ولدت بها، بيد انه انطلق من عمارة الاقدمين حيث درس اصولها ومبادئها وطاف بارجاء ملكة الفراغة الممتدة على ضفتي النيل ليستنبط نسب العمارة التي تنسب اليه كاسلوب من قبل تلاميذه. وأياً ما طوافه ومساهماته دارت بخلده تساؤلات شكلت الاجابة عليها بداية نهضة فكرية معمارية عربية رائدة، وكانت هي الامواج الصوتية الاولى للصيحة الخافتة مدار البحث هنا، فماذا دار بخلده وما كانت دعائم تلك النهضة المزعومة؟

يعبر حسن فتحي - الذي ولد بالاسكندرية عام 1900م لابوين من الطبقة المتوسطة - مراراً وتكراراً من خلال كتاباته عن بدايات عجايبه بالريف منذ طفولته من خلال ما سمعه من والدته من اقصايي حول الريف حتى اضحى الريف كأنه (الجنة المفقودة) حسب تعبيره، غير أنه اصابته خيبة أمل عندما شاهد واقع الريف مقارنة بالصورة الحالية التي اُرسمت في مخيلته، وحال خروجه من مرحلة الدراسة التأسيسية التحق بكلية القاهرة لدراسة العمارة اذ تنامى لديه حبه للريف والطبيعة، تلك كانت البذور الاولى للتأسيس لمدرسة فكرية معمارية، وأبان الحرب العالمية الثانية واثاء أزمة نقص مواد البناء تولدت لديه العديد من التساؤلات حول امكانية البناء اعتماداً على الطبيعة دون اللجوء للسواد المستورد وللعمالة الماهرة باهظة التكاليف، وتساءل: كيف تسنى لقدماء البناء وبخاصة التسقيف دون اللجوء لاستخدام الأخشاب (للطوباء)؟ وهل يمكن بناء قبة أو قبة دون الحاجة للطوباء؟ وان كان ذلك كذلك فهل يعني ذلك ان العمارة قد ولدت لتلبي حاجات الفئة الغريبة من الامة تاركاً الاغلبية الغالبة تعيش على هامشها؟ هذه كانت بعض التساؤلات الاساسية التي دارت بخلد حسن فتحي واستلقت كبرى (العمارة للفرقاء) التي كانت عنواناً لخواطره المعمارية التي كتبها في كتابه الذي حمل نفس الاسم، وتلك كانت اولى الامواج الصوتية للصيحة التي اطلقها حسن فتحي. بيد ان هذه الصيحة ترددت اصداؤها بين جنبات الوطن العربي وكان انعكاسها قطعاً موحداً في بادي الامر، ولم تجد قبولا أو ترحيباً من



اغلبها الخصوصية البصرية لاهل الدار. وهناك عناصر واخيزة فراغية اخرى متصلة اتصالاً مباشراً بالفناء مثل (التختبوش) وهو حيز فراغي على الدور الارضي في الجهة الخلفية يؤدي وظائف اجتماعية وقد اشتق اسمه ايضا من وليفته اذ يعكس الخصوصية البصرية والاجتماعية للحاسن بذلك الحيز الفراغي يمازن من غارات الدخلاء أو الزوار المفاجئة أو مما يقطع صفو الجلسة. ويتصل بجدارة الخلفي بحديقة خلفية كما نرى في بيت الحسيني بالقاهرة مثلا. ولا تقتفي اهمية الاتصال الفراغي بين الفناء المكشوف وبين التختبوش المغطى المتصل بالحديقة في جريان تسمية هوائل عليل في الصيف، وبخاصة مع توفر مسحة من غطاء نباتي بين قوائين الفيزياء التعامل مع قوة أو عنصر ما بمعزل عن المحيط. وبذا تتسائل: ما بال معماريي العالم العربي المعاصرين اذ بعدد احدهم الى استعارة احد العناصر من المنظومة المعمارية (الحركة) ضمن المبنى التقليدي والصالحها (شكليات) التي يلبسها المعمار المعاصرة ليس في البيوت المبنية المصنوعة من الطوب والادوية التي تشعب في الدروس والتجارب التي تشعب شاخصها في الموروث من البيئة العمرانية التقليدية مندوحة عن هذه الاستعارات البترائية؟

اما العنصر الآخر فهو: (الدرعقة) ويلحق بها (الشخشيخة) وهي التسقيف الفراغي الذي يعلو القاعة الداخلية التي عادة ما تكون على طابقين. والشخشيخة تسمح بدخول الهواء النقي في فراغ القاعة من ناحية، كما تسمح بالتحكم بدخول أو خروج الهواء تبعا لفكرة فرق الضغط بين مناطق الظل والنور بالبيت. وبذا تؤدي لدى اتصالها فراغياً مع الفناء الى تحريك الهواء داخل البيت وتلطيف درجات الحرارة العالية التي غالبا ما سادت البيئة التقليدية. كما تتصل احيانا بتغير فتراسها ثالث هو ملقف الهواء كما يعرف في مدن شمال افريقيا (أو الباججير في دول المغرب العربي، والتي تؤدي وظائف اخرى



كافة قطاعات المسؤولين والمفكرين والمعماريين. اذ كانت تمثل دعوة جريئة للعمارة البسيطة أو للعمارة الفطرية. وهذه كانت حري كبدية لطريق شاق وشاق طويل من التجربة والخطأ، وتحقق للكثير من الدعم والتعاون من مختلف القطاعات، يضاف الى ذلك انها كانت في مراحلها التجريبية الاولى وتبدو خيالية التطبيق مع تعدد الحياة وتطورها، وفضلا عن ذلك فقد بدت وكأنها دعوة رجعية لعمرارة (كما قبل الحضارة) ان تجازت هذه الاستعارة اللغوية،

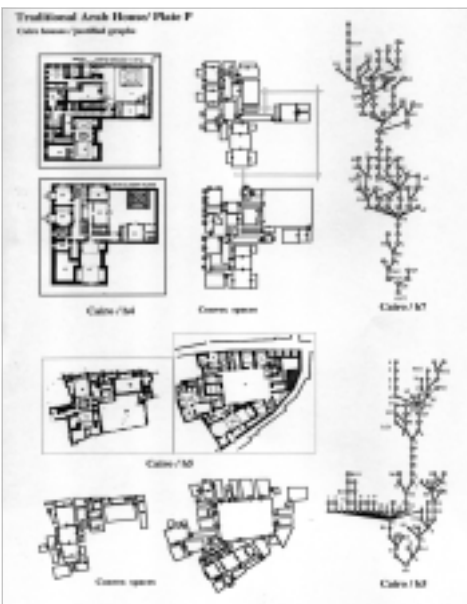
انها تدعو لنمذ المعاصر والعودة الى البساطة ما لا يتماشى مع مخترعات العصر الحديث، أو وأما البعض كأنها دعوة لتجديد التاريخ عند حدود ما ابدعه الاقدمون ومحاكمتهم منهجا وانجا، وواضح بذا تأثير اندل العمارة العالمية التي كانت تمتد تدريجيا الى المنطقة تحت غطاء الحداثة، ومن هنا كان الصراع بين هذين المدين خلال الثلاثة عقود التي تلت بداية انطلاقا صيحة حسن فتحي.

مع بدايات التسعينيات من القرن الماضي، ظهرت بعض امارات التجاوب والتناغم مع افكار حسن فتحي بين جيل راشد من المعماريين العرب الذين لم ينهجوا تماما نهج حسن فتحي، انما عبروا عن افكار وتنماتش ونفس المدرسة الفكرية، وبرز هؤلاء المعماريين الذين انتشروا على امتداد الوطن العربي كان راسم بدران من الاردن الذي عبر من خلال الطء الوافي الذي مر خلال مشاريعه التي ترى في اكثر من قطر عربي عن قدرات المعاصرة للمحافظة عليها وتنميتها من خلال البيوت الطروحات التي تقف في مواجهة المد العالمي من جهة، وامام تحديات ابداعات الماضي لتعطي بدائل تنسج بروح المعاصرة ضمن اطار القيم الابدية المتمثلة في التأسيس لدراسة معمارية مسئلة مثلاً، ابرز عناصرها القدرة على التكيف مع متطلبات العصر ومتطلباته واتجاه الحوار مع الماضي دون الوقوع تحت اساره أو الانبهار به بما يجد من قدرات الابداع والتجديد، وبرز ما يميز عمارة راسم بدران عن حسن فتحي، ان الناتج في عمارة بدران متنوع من حيث الناتج ويمكن كتميز الفكر المعماري المتخصص في عمارة راسم بدران، وقلماً يمكن ان ينسب طراز أو مفردات خاصة بعينها لعمارة بدران اذ ان راسم بدران ينحو التجديد على الدوام وان كان من ثمة عناصر أو مفردات معينة يستخدمها في عمارة المعاصرة فان ذلك مرحليا ولا يعكس تفعوا أو التزاما بما يجدد الحوار المتواصل بين الماضي والحاضر.

من اخبار العمارة العالمية

منظومة الحيز الفراغي Space Syntax احداث نظرية في بريطانيا لقراءة وتحليل الحيز الفراغي الحضري

الخارجي أو الفترة التي تم البناء فيها. وهناك ابحاث اخرى لاستقصاء دور الفناء في البيت العربي من قبل الباحثة (ريم زكو) بجامعة لندن، وفي نفس الاطار تم اسقاط النظرية على بيوت من ثقافات اخرى كالبرازيل، واندلجرا وغيرها، واجرى د. وليد السيد بحثة حول اشكالية الاصلة والمعاصرة في العمارة العربية كاطار عام، مع تضيق نطاق البحث بدراسة وتحليل 88 بيتا تراثيا في خمسة مدن عربية (القاهرة، بغداد، تونس، صنعاء، والسلط بالاردن) مع المقارنة بعشرين بيتا معماريين معاصرين (حسن فتحي وراسم بدران) باستخدام نظرية (منظومة الحيز الفراغي) Space Syntax كادى منهجيات البحث والتحليل.



ولعل تميز النظرية كما ذكر انها تنبذ الى العملية الموضوعية من جهة، والتحليلية والاستنباطية من جهة اخرى أكثر منها الى السردية الوصفية أو التجريبية الوصفية الشخصية. بيد انها نظرية نخل خاضعة للاخذ والرد، الا ان سمة المقارنة في منهجية البحث التي تطرحها تمنحها ميزة اجابية، ان المقارنة بين عنصرين باستخدام ذات الآلة يكشف اوجه التشابه والاختلاف بين العنصرين بمعزل من ماهية الآلة ذاتها، علما بان آفاق النظرية ما تزال واسعة وتكثف باب مفتوح للبحث والتحري في الثقافات المختلفة وضمن محيطات الحضارة ذاتها. للاستزادة حول هذا الموضوع انظر: http://www.spacesyntax.com/

تطويرها وتمويلها بجامعة لندن تمكن من اعطاء النتائج البيانية بدلالات ريفية أو لونية يتم اخضاعها للتحليل والمقارنة للاستنتاج والاستنباط على ضوء الخلفية التاريخية الفكرية والاجتماعية الثقافية والحضارية الخ. اما تطبيقات النظرية التي جرت حتى الآن فواسعة النطاق شملت العديد

انتشر استعمال الفناء في العمارة العربية التقليدية المنتشرة على طول ارجاء العالم العربي شرقا وغربا. ولم يقتصر هذا الاستخدام على نمط معين من المباني دون آخر، بل نراه في كافة المباني التقليدية ابتداء من البيوت والاماكن الخاصة الى المباني العامة كالمساجد والمدارس والخانقاه. ويعزو بعض الباحثين انتشار استخدام الفناء الى اسباب مناخية واخرى اجتماعية. فيما يعمد البعض الآخر الى الاعتقاد بانتشار الفناء (كمنظومة) بنائية كظاهرة تخطيطية شاعت كمعرف وقانون تشريعي بنائي انعكس مباشرة على التسيج العمراني الحضري في البيئة التقليدية. واما ما كان الدافع فقد كان لظاهرة انتشار الفناء في البيئة التقليدية اثر في البيئة الحضريّة المعاصرة وعلى معماريي العالم العربي المعاصرين. اذ قلما يغفل احدهم هذا العنصر من تصاميمه ان كان يدعي انتمائه للتراث والعمارة التقليدية كمرجعية تاريخية. ولكن ما مدى شرعية الاستعارة من الماضي عبر الحاضر؟ وما هو دور (الفناء) في المباني المنتشرة في البيئة التقليدية في العالم العربي؟

د. وليد السيد
معماري / جامعة لندن

يشير الباحثون في مجال العمارة العربية التقليدية الى الفناء (ظاهرة) سائدة عكست كما كانت انعكاسا في نفس الوقت لظروف واحوال مناخية. حيث اسهم الفناء بتوفير منطقة وسطية (غالبا مركزية) ضمن المبنى التقليدي تتميز بفرق ضغط ودرجة حرارة مختلفة عن مجاوراته من احيزة فراغية مما يسمح بانتقال الهواء عبر المبنى وتوفر نسيم هوائي يساعد على تلطيف درجات الحرارة. بيد ان الفناء لوحده لا يلعب هذا الدور ضمن المبنى التقليدي. اذ ان هناك عناصر اخرى ضمن المبنى كالمبنى المنخفض كتقوية الجدران وكمنظومة مجتمعة معاً الى جانب الفناء وهي الاحيزة الفراغية المتعددة المحيطة بالفناء وغالبا ما تكون شبه مغلقة أو مسقوفة. وهذه الاحيزة الفراغية تقع اما على نفس الدور الارضي أو على دور علوي يشرف على الفناء وهي: اولا الابواب، ويتواجد الابواب بخاصة في المباني العامة كالمساجد والمدارس وبعض الوكالات، وهذا العنصر المعماري يقع على احد او

لونارد - لندن:

منظومة الحيز الفراغي (Space Syntax) هي نظرية تعني بفهم وفراءة وتحليل الفراغ المعماري والحضري. وقد طورها البروفيسور (Bill Hillier) خريج جامعة كامبريدج، والذي يجري ابجانه حاليا مع مجموعة من زملائه بجامعة لندن (Bartlett School of Architecture) منذ منتصف التسعينيات. وتعتمد هذه النظرية على اعارة قراء الفراغ المعماري والحضري بناء على مفاهيم ومعادلات وحسابات رياضية بتحويل العلاقات الفراغية الى علاقات رياضية تاخذ بعين الاعتبار موقع الفراغ بالنسبة للمنظومة الفراغية ككل ضمن المبنى المعماري الواحد أو ضمن الشبكات الحضري للمدينة. وتستند هذه النظرية اصولها من مبادئ منطكية في تمثيل الفراغات

ضمن منظومة ما، حيث لاحظ البروفيسور (Hillier) انه لو كانت لدينا منظومة فراغية ما ضمن مربع معين مبنى الشكل فسكان العلاقات الفراغية لهذه المنظومة لا تختلف فحسب باختلاف المنافذ المباشرة وغير المباشرة بين الفراغات المختلفة، بل ان القيم الرياضية للفراغات بالنسبة لعلاقتها بتقسيم الفراغ لاختلافات جوهرية ايضا. ويتمثيل الفراغات ضمن منظومة ما بمجموعة من الدوائر المترابطة التي تعكس علاقاتها ضمن المنظومة الفراغية فإن الشكل الناتج (والذي يشبه الشجرة المتفرعة) يمكن من ادراك التباين بين المنظومات الفراغية المختلفة بالعين المجردة.

وقد نشر البروفيسور (Hillier) ابحاثه في العديد من المجالات المتخصصة، كما نشر نظريته لأول مرة عام 1984 في كتابه (The Social Logic of Space Juliene) بالتعاون مع الدكتورة (Hanson) الباحثة بنفس الجامعة، وتلا ذلك عام 1996 كتابه (is the Machine) - على غرار مقولة (لوكوربورزوييه) الشهيرة: (البيت آلة للعيش فيها) - والذي يشرح نظرية (منظومة الحيز الفراغي) بأسهاب، حيث يكشف الاسس المنطقية التي تستخدمها النظرية، بالإضافة الى تطبيقاتها الممكنة على البيئة المبنية ضمن الاطار الاجتماعي والثقافي. وتستند

وهو ما تعاني منه معظم النظريات المعمارية والتصميم الحضري التي تعالج مفهوم (الحيز الفراغي في العمارة). وفي معرض التطرق لمداخلات واطروحات النظرية عالميا، فقد جرى اول مؤتمر عالمي عام 1997 بلندن، تناول أبرز الابحاث العالمية التي تستخدم هذه النظرية في تطبيقاتها المعمارية والحضريّة. كما تلاه مؤتمر ثان عام 1999 في البرازيل، والمؤثر الثالث عقد مؤخرا في امريكا في الفترة (8-11/10/2001). ويجري عقد مؤتمر دوري كل سنتين في دولة مختلفة حيث تلاقي النظرية وتطبيقاتها صدى عالميا واسعا، وقد أعلن ان المؤتمر الرابع سيكون في لندن مرة اخرى عام 2002.

وقدم تم تطوير النظرية منذ عام 1976، حيث كانت المعادلات والبيانات والمعلومات تخصص للتصنيف بطرق يدوية، ومع منتصف الثمانينات وتقدم علوم الكمبيوتر امكن ادخال النظرية الى حيز علم الحاسب والالكتروني، حيث يمكن حاليا ادخال المعلومات الفراغية الى برامج كمبيوتر تم

من اخبار العمارة محليا وعربيا وعالميا:

المعرض العالمي للعمارة EXPO 2000 بألمانيا لونارد - هانوفر

وحضارتها وتاريخها معماريا وذلك ضمن مساحة قليلة مخصصة لكل دولة مساهمة ضمن المعرض. وتجد كل دولة هذا المعرض فرصة عالمية لعرض اوجها مشرقة عن حضارتها وعمرانها من خلال افكار مبدعة تتخص عنها افكار اللجنة المسؤولة المصممة، والتي غالبا ما يقود فريقها احد المعماريين اللامين في ذلك البلد.

جرت العادة ان يعقد معرضا دوليا للعمارة في دولة مختلفة حول العالم كل سنتين تساهم فيه تقريبا جميع دول العالم. وهذا المعرض العالمي يمثل نافذة حضارية لكل دولة حيث تسنح الفرصة للمعرض اوجه من تراثها وما تعكسه عمارتها من ثقافة وحضارة وتقدم تكنولوجي أو تقني في مجال البناء والعمران أو أي وجه من أوجه تميزها عن غيرها من الامم

وغالبا ما يعمد المعماري الى ترك آثار انطباعية للزائر للجنح الخاص بتلك الدولة، من خلال المواد المستعملة التي تعكس البيئة المحلية وطبيعة مناخها، أو من خلال رسالة بصرية فعالة يجتهد المعماري المصمم لتركها

ولا يخفى دور المعرض كسفير عالمي لنقل رسالة حضارية عبر العالم في نقل صورة مشرقة عن البلد من جهة، إضافة الى تشجيع وتنشيط السياحة مما يدعم اقتصاد ذلك البلد ويساهم في التواصل والاتصال مع مختلف الجنسيات ودول العالم الأخرى.



The World Exposition
Hannover 2000
Germany